

مظاهر الهوية الفلسطينية في روايات جبرا إبراهيم جبرا

Palestinian Identity and its Features in
Jabra Ibrahim Jabra's Novels

د. رابعة عمر حيات

أستاذة مساعدة

القسم العربي، كلية جناح للشهادة المشاركة (بنات)، مزنة، لاهور

Email: rabiaomarhayat.roh@gmail.com

Abstract

Jabra Ibrahim Jabra left his homeland of Palestine twice. Once when he ventured to England in the pursuit of his own higher education and once to escape the bloody conflict that his home had been caught in, forcing him to go to Iraq where he eventually settled down and dedicated himself to his academic, literary and critical analyses projects.

Despite his geographical distance from Palestine, Jabra Ibrahim Jabra never identified himself as anything or anyone other than a Palestinian. Indeed, this strong sense of personal identity is reflected in his novels and the characters in them that serve as living metaphors of Palestinian resistance against occupation. A common theme among these characters is a deep sadness that does not let their souls heal from what they have suffered by reliving their trauma over and over again.

Reading between the lines of his works, we come to the understanding that this man has dedicated his pen to the Palestinian identity. A common goal shared by most Jabra Ibrahim Jabra's protagonists is to return home and join the resistance against the oppression of their people. This study will aim to explore different features of Palestinian identity in Jabra Ibrahim Jabra's novels.

Keywords: Palestinian identity, subtle features, obvious features

الملخص:

ترك جبرا إبراهيم جبرا فلسطين مرتين، مرة للدراسة العالية في إنجلترا، وفي المرة الثانية تركها ليستقر بشكل نهائي في العراق متفرغاً لنشاطه الأكاديمي ومشروعه الثقافي الخصب الموزع بين الإبداعات الروائية والقصصية والدراسات النقدية والفنية والترجمات. وبالرغم من ابتعاده الجغرافي عن أهله وبلده، إلا أن هويته الفلسطينية بقيت حاضرة بقوة، وبقي ألمه الفلسطيني حاراً دائماً ودافق. تشهد على هذا

جميع رواياته التي لا بد أن يطل فيها ومن خلالها بطل واحد أو أبطال كثيرون فلسطينيو الهوية، مناضلون غالباً في صفوف القضية تغلب عليهم بصمة الحنين إلى الوطن واللهفة إلى ذكرياته. هذا الحس الغامض بمركزية فلسطين وأهمية مكانتها هو نفسه دفع الكاتب لأن يندر قلمه - وإن بشكل غير مباشر - للتعبير عن فلسطين والهوية الفلسطينية وصقل مظاهر هذه الهوية في أبطال رواياته، فهم لا يشغلهم هم أو طموح قدر هم وطموح تحرير بلدهم والعودة إليه. وستهدف هذه الورقة إلى دراسة الهوية الفلسطينية ومظاهرها في روايات جبرا إبراهيم جبرا.

الكلمات الهامة: الهوية الفلسطينية، المظاهر المباشرة، المظاهر المروعة

الهوية الفلسطينية في روايات جبرا إبراهيم جبرا:

عبر جبرا في أحد حواراته الشهيرة مع الناقد العراقي المعروف الأستاذ ماجد السامرائي قائلاً: "تجربتي الفلسطينية كانت تجربة من خرج من الجنة فذكرها.. هذا الشيء لا أستطيع التغلب عليه.. كلما تذكرت طفولتي في القدس وددت لو أتي جعلت منها قصيدة أو قصة. أنا أقول دائماً: إن هنا براءة فقدناها. فترة البراءة هذه قليل منا كتب عنها... وقد حاولت الكتابة عنها على طريقتي المحدودة..."¹.

وطريقته التي وصفها - بكل تواضع - بالمحدودة، كانت طريقة خصبة جداً، واستثنائية، تجاوزت المستوى الظاهري المسطح من القضية؛ المستوى الخطابي، ذي النبرة الإنشائية المستجدية مشاعر القراء وتفاعلهم الطارئ، لتنتج على المستوى التكويني الغائر، الذي ينشد العمق ويتوخاه بأقوى الوسائل، وأمضاها. ولا أمضى من سلاح الفكر، أو أعمق من أسئلة الوعي، وإشكالات الفن، ولهذا نجد جبرا يحرص أشد الحرص على الارتقاء بمستوى أبطاله إلى مستوى الأبطال الرؤيويين، الذين لا يكتفون باستراق النظر نحو الفاجعة، وملامسة ملاسقاتها سطحياً، بل يقتحمونها اقتحاماً، ويقدمون للعالم بأسره درساً أسراً في الصدق، والثبات، والوعي، يعبر عنه جبرا بإصراره على أن "الإبداع والكتابة الجيدة هي نضال قد لا يقل أهمية عن أي نوع آخر من النضال... إن النضال في سبيل أية قضية لا يمكنه سوى أن يكون مزوداً بهذا النوع من الفكر المتوالد باستمرار، والمؤكد على التفاعل بين الفرد والحياة... لأن حقنا نحن الفلسطينيين في الحياة هو حقنا في أن نرى هذه الأشياء كلها على طريقتنا، ونؤكد بذلك حضورنا إنسانياً. وهذا في الحقيقة هو الذي حاولت أن أفعله بالذات. كتاباتي كلها عن فلسطين، وعن الدور الإنساني لفلسطين"².

وتبدو من خلال هذه الشهادة رؤية جبرا وأسلوبه الذي اختاره في التعبير عن هموم نفسه التي هي نفسها هموم وطنه وقومه؛ أسلوب النضال من فوق، أو أسلوب الفكر والتأمل، وصقل طاقات

الذات، والتركيز على إعلاء جوهرها المشع، الذي هو في النهاية عينة مقصودة، ومتوخاة عن جوهر الجماعة، ووجهها الحميمي البعيد عن أية أقنعة أو مصادرات.

مظاهر الهوية الفلسطينية في روايات جبرا إبراهيم جبرا:

وفي هذا السياق يمكن ملاحظة أن حضور الهوية الفلسطينية يتفاوت في أعمال جبرا حدة وليناً، وسطوعاً وخفاءً، فنجد هماً وهاجساً حاضراً بقوة، وإن بأشكال مختلفة، وملامح متعددة، يبدو جهورياً صاخباً في أعماله الأولى، ثم يتخذ لنفسه الحضور التأويلي الملتبس. وهو ما يمكن توضيحه فيما يأتي:

1- المظاهر المباشرة:

ويبدو هذا النوع بشكل واضح من خلال أعمال جبرا الأولى، التي يحضر فيها البعد التاريخي بشكله المباشر، والجهوري، وهذا على وجه الخصوص في عمله الشهير (صيادون في شارع ضيق)، الذي فضلاً عن التقاطعات الكثيرة بين سيرة بطله جميل فران وسيرة المبدع جبرا إبراهيم جبرا من حيث أن كلاهما فلسطيني، مسيحي، يقصد بغداد لغرض تدريس اللغة الإنجليزية فيها، ويحتك بطبقة الأغنياء فيها، وطبقة المثقفين الكادحين، ويكتب، ويحاضر، ويعشق، ويغامر، ويعيش حياته الإنسانية بكل تفجر وامتلاء.

رغم هذا الخط الإنساني العميق، الذي شحن به جبرا شخصية بطله المثقف هذا، فإنه لم ينس أبداً شحنه بكثير من هواجس قضية وطنه وهومها، فنجد نفسه تطفح حنيناً وشوقاً إلى القدس ومباهجها، هو الحنين نفسه الذي يعصف بذات الكاتب، ويثير حزنه وشجونه: "ما عدت أستطيع أن أذكر ملامح أية مدينة في العالم سوى مدينة واحدة، مدينة واحدة أذكرها، أذكرها طيلة الوقت، ترك جزءاً من حياتي مدفوناً تحت أنقاضها، تحت أشجارها المجرحة وسقوفها المهدامة، وقد آتيت إلى بغداد وعيناي ما زالتا تتشبثان بها: القدس".³

هذا الترويع الحيني لم يقف عند حدود الاستحضار والذكرى، بل امتد ليشمل نقل كثير من الأحداث التي عرفتها فلسطين، وذافت أهوالها بدءاً من نكبة سنة 1948، وانتهاء إلى ما تخللها وأتي بعدها من جرائم ارتكبتها الإرهابيون الصهاينة، وجعل الكاتب من حادثة مقتل (ليلي) خطيبة البطل وحببته مطية للإحالة إلى مثل هذا الهاجس الوطني، الذي لم يشغل الفلسطينيين وحدهم، بل امتد إلى عموم أبناء الوطن العربي الآخرين، مع ملاحظة أن جبرا كان شديد العناية بصقل هذه الهواجس والانشغالات، والخروج بها من دائرة التسجيلية والتقريبية، فنجد البعد الدرامي فيها يتغلب على البعد التاريخي، "لينصهر الثاني في الأول، ويقدم في قالب تراجيدي لتعميق الإحساس بالمأساة، فالراوي لا

يسرد النص التاريخي من وجهة نظر تاريخية بحثية، بل يستدعيه للدلالة على تأثير الأحداث في حياته، وحياة الآخرين".⁴

وهو ما نجده حريصاً عليه أيضاً في ملحمة الروائية القادمة (السفينة)، التي يطل من خلالها الهمّ الفلسطيني حاراً أيضاً، ودافقاً، من خلال شخصية البطل المحوري فيها (وديع عساف) الذي تنثال أغلب خواطره، وتأملاته الذاتية في مناجاة الوطن البعيد، والحنين إليه، بل إن مشروع زواجه من الطيبة اللبنانية الناجحة (مها) يكاد أن يتعثر بسبب حنينه الدائم إلى فلسطين، وإصراره على العودة إليها، وأتى سفره البحري الطويل لفترة بارعة من الكاتب تذكراً بأوديسيوس الأسطوري في متاهاته البحرية ومكابداته في سبيل العودة إلى وطنه ومهدده الأمومي الأول "إيثاكي"، فتستحيل في هذه الرواية "فلسطين" إلى "إيثاكي" جديدة، أو إلى فردوس أزلي مفقود، يعاني بطلنا هنا، شأن بقية أبطال جبرا الآخرين في سبيل استعادته، والعودة إليه. ولنستمع إليه يعبر عن هذا الشوق والحنين في قوله في أحد المواضع من تأملاته:

"أضعت أرضي في القدس، واكتسبتُ مكتباً للاستيراد في الكويت! نُفيتُ عن جذوري وكوفتُ عن نفبي بالبيع والشرء!"⁵

أو قوله في موضع آخر: "ليتني كنت كفرناندو، ذاهباً إلى بلدي الذي لم يشطر أجزاءه سيف أحق. ليتني كنت مثله ذاهباً إلى بلدي، قادماً من بلد غريب، وفي جيبي حصيلة أسفاري، فأحط الرجال في البلدة، وأخذ الكمان مثله، وأبحث عن صديقين أو ثلاثة يعزفون على آلات أخرى، ونؤلف جوقة موسيقية، فنعزف، ويرقص الناس، ونرقص مع آلاتنا، وهم يرقصون مع نسائهم..."⁶

ويبدو من خلال هذا الاقتباس الموجز مدى أهمية قضية الوطن، وإلحاحها على ذهن هذا البطل ووجدانه، لا بشكل غنائي، وشاعري فقط، بل بشكل عملي أيضاً، تجلّى في النشاط النضالي الذي خاضه (عساف)، وكاد أن يلقي من خلاله حتفه أكثر من مرة، وكم كان الكاتب بارعاً في تصوير جهده المستميت في سبيل حمل صديقه ورفيقه في السلاح فايز الذي أصيب إصابة قاتلة، لم تجد معها جهود البطل شيئاً.

وفي رواية جبرا الدائعة الصيت، والمثيرة للجدل (البحث عن وليد مسعود)، تبدو الهوية الفلسطينية ماثلة بقوة أيضاً، فإن بطل هذه الرواية (وليد مسعود)، الذي اجتمعت فيه صفات أو بالأحرى هويات كثيرة - كصفة الراهب المتزهّد من جهة، والفيلسوف المفكر من جهة ثانية، والعاشق الدونجواني من جهة ثالثة، ورجل الأعمال الناجح من جهة رابعة، وغير ذلك - نموذجاً للمناضل الوطني بامتياز، قدم جزءاً كبيراً من شبابه فداءً للقضية، ودخل سجون العدو، ولقي فيها ما لقي من عذاب،

ثم قدم ابنه اليافع (مروان) شهيداً، ليعود بعدها إلى القضية من جديد، وينبذ أمواله وأملاكه في بغداد، ويغيب غيبته الغامضة، التي لم يشرح الكاتب خفاياها لنا، ولكنه ألمح بذكاء شديد ومكر إلى أنها مرتبطة حتماً بالقضية، وعودة ارتدادية إلى أجوائها المحتدمة، الحامية. وهو ما يجعل من هذا البطل (وليد) نموذجاً عن "الشخصية الفلسطينية الجمعية، المغيرة، أو الطامحة إلى تغيير العالم".⁷

ويبدو هذا من خلال نقاط كثيرة، أهمها ما سبق ذكره من استماتة (وليد) في الانخراط في صفوف المقاومة، وانضمامه السري إلى منظمة "فتح"، وسجنه، ونضاله وما إلى ذلك، إلى جانب ما استفاض فيه قلم الكاتب من وصف معاناة الفلسطيني ولعنة شتاته التي تحاصره، وتفرض عليه الضياع والنفي بين أكثر من دولة وإقليم، قد يلقي فيها شيئاً من النجاح المستحق، والنابع من خلاصة جهوده، وكده، وشقائه، ولكنه لن يجد فيها أبداً الراحة، والأمان، والدفع، الذي لا يعوضه شيء سوى دفع الوطن وحميمية ملامحه، وأجوائه. وهو ما تجد بوضوح من خلال شخصية (وليد) الذي كان ناجحاً تماماً في جميع محطات حياته، ولكن نجاحه ذلك لم يعوضه أبداً عما يفتقده من هاجس العودة، ونداء الوطن المغتصب البعيد، فنجد الكاتب يسقط من خلال هذا الكائن الحبري كثيراً من هواجسه الشخصية وهواجس أبناء وطنه بشأن الهوية والانتماء ولنستمع إليه يردد شقا من هذه المعاناة الجمعية على لسان بطل فلسطيني آخر هو (عيسى ناصر) في سياق حديثه عن وفاة (مسعود فرحان)؛ والد (وليد)، وعدم قدرة أغلب أبنائه على الالتحاق بجنازته إلا بعد ثلاثة أيام أو أربعة، لا لبحود منهم، أو برود في عواطفهم، بل السبب آخر يوجزه في قوله: "لقد كانت مصيبة الفلسطيني لا النفي عن مسقط رأسه فحسب، بل الصعوبة المفروضة عليه في التنقل من بلد إلى بلد، ورصده رصد المجرمين من أجهزة أمن لا تخص أنواعها، وما من حكومة عربية إلا وتصرخ بالوحدة وتضع في الوقت نفسه ألف حاجز بين قطرها والقطر العربي الآخر. أمرنا الله!"⁸

ولئن أتت هذه الزفرة الجمعية على لسان بطل فلسطيني غير محوري في سيرورة الأحداث وتلاحقها، فإنها ترصد وتركيز شديد جزءاً مهماً جداً من معاناة الفلسطيني، في متاهاته أو بالأحرى في تيهه المفروض، وفي عزمه الموازي على تحدي هذا التيه، وعلى ضرورة تلمس طريق النور، ودروب اليقين، التي لا تتحقق إلا بحلين، أحدهما الاقتحام والمواجهة المسلحة - وهو ما أداه (وليد مسعود) بامتياز - وثانيهما التميز والنجاح في بلدان الإقامة الثانية، وهو أيضاً ما نجح فيه (وليد) نجاحاً باهراً، جعل بقية الشخصيات غير الفلسطينية تكاد تضمحل إلى جواره، وتتهاوى. "وهكذا يصبح وليد مسعود هو فلسطين، وهو المجتمع العراقي، لأنه المفكر، والمناضل، والفقير - الغني، والجسد - الروح،

والشهواني - القديس... إلخ. إن جمع الأضداد في كيان ولید مسعود ليس تقدماً للكون الإنساني المعقد، بل هو محاولة لخلق شخصية نموذجية، تمثل كل شيء، وترمز إلى كل شيء".⁹

2- المظاهر المراوغة (الغير مباشرة):

ويمكن لمس هذه المظاهر في بقية أعمال جبرا اللاحقة، التي ربما لم تحظ بمثل قوة انتشار الأولى، وشهرتها، وقد يكون هذا بسبب بعدها التجريدي الواضح، وتقنياتها السردية المختلفة في فنياتها عن تقنيات أعماله الأولى، ومسارها، أو قد يكون بسبب النجاح الكاسح الذي حققته الأولى - ولا سيما رائعته (البحث عن ولید مسعود) - التي غطى نجاحها على نجاح بقية الأعمال، وصادر إلى حد غير قليل انتشارها. وأياً كان الأمر، ففي أعماله الأخيرة تبدو البصمة الفلسطينية ومظاهر الهوية ماثلة، ولكن بكثير من المراوغة، والمداورة، نلمس أبرز تجلياتها من خلال روايته الإشكالية (الغرف الأخرى)، التي كثيراً ما تتراءى بشكل ملغز، ممعن في الترميز، والتجريد، مما يجعلنا نصفها - ودون مبالغة - بالنص المتأهية، الذي تبدو فيه ملامح كثيرة من هواجس الكاتب وكوايسه متلبسة بقراءاته، ومطالعاته، ولا سيما بقراءاته لعوالم الكاتب التشيكي الكابوسي التزعة "فرانز كافكا - F. Kafka" الذي بدت بصمته في غاية الوضوح، من خلال غموض ملامح المكان، وما بدا على البطل من ضياع، وتشظ، وفقدان لأبسط ملامح ذاته وهويته: اسمه، ووجهه، ومهنته، وما إلى ذلك؛ فالعلاقة هنا على أشدها بين عالم هذا العمل الكابوسي، وعوالم "كافكا" في روايته (المحاكمة) التي تعد مرجعه الأول في ذلك، من حيث "معالجة موضوع (السلطة والمطاردة/ والبطل المطارد) وما تستتبعه من وقوع الفرد ضحية الجور، والظلم، والقمع... وكما يقاد بطل كافكا في متاهة الحلقات الإدارية والبيروقراطية، غير الواقعية... فإن بطل جبرا يقاد بدوره في متاهات من أروقة الأبنية والقاعات، وتتالي الموظفين، ويغرق بين الأوراق والملفات...".¹⁰

فالبطل في هذه الرواية نموذج ممتاز للذات العربية عموماً والفلسطينية خصوصاً، المصادرة الطاقات، والمقموعة، والمعرضة دائماً لقوى خارجية مجهولة، تفرض عليها هيمنتها، ووصايتها، وتعد عليها أنفاسها وحركاتها، فنجد - أي البطل - مجهول الاسم لا بالنسبة لنا فحسب، بل بالنسبة لنفسه أيضاً، تقتاده فتاة جميلة إلى بناء مجهول على مشارف الصحراء، وتتمادى هي ورفاقها في تعذيبه نفسياً، وإرهاق أعصابه، بشكل سريالي ممعن في العبثية، والغموض؛ ذلك الغموض الذي ينفلت فيه الكاتب من أسر التسميات وقيودها، فلا نعرف لهذا البطل اسماً ولا هوية، ولا نعرف أيضاً اسماً لبلده، ولا لهذه المدينة التي هو فيها، نراه يتعذب فحسب، دون أن يعلم هو ولا نحن، لماذا، وكيف.

ولعل في هذا الأسلوب التجريدي / الكابوسي، المختلف كثيراً عن بقية أعمال جبرا السابقة واللاحقة، ما قد يصم هذا العمل بشيء من التعمية والالغاز، أو حتى "التقية" والتخفي وراء الكنايات والتوريات، التي يتصدى هو نفسه لها، ويوجه نقداً لاذعاً لأصحابها، حيث يرى أن الكاتب العربي ما زال "يخشى أن يقول كل ما لديه، وأن يخلص في قوله إلى نفسه، ورأيه. ما زلنا نرهب الطعام، ومركوبي الخرافات، ما زالت "إنسانيتنا" إنسانية التغاضي وغض النظر، ولن تكون قصصنا إلا مرآة لهذه "الإنسانية" التي تخشى الجهر، والتورط: إنسانية ناقصة، لأن من شيمها البارزة: الجبن".¹¹

ولا شك أن جبرا بفكرته هذه لا يقصد جميع الإبداعات التي تتوخى شيئاً من الترميز، والبعد عن تسطحات الخطاب التسجيلي، وبرودة التقارير الإحصائية البحتة، التي تفتقد حرارة الخيال، وروحه المتوهجة، الوثابة، حيث لا بد في أي عمل إبداعي جاد أن يتحدى المبدع واقعه ومجتمعه، وأن يرصد جميع تغيراته، وتحولاته على مستوييها: الظاهري، والخفي، ملاحقاً إياها "كما يراها هو، لا كما يريد المجتمع أن يراها، لأن مهمته الكبرى هي الإخلاص لعينه، وإحساسه، بينما يؤثر المجتمع التمويه عن قصد أو غير قصد، فيحاول تغطية علله، أو تبريرها بشئ الأساليب، التي لا تنطلي على الكاتب".¹²

أي أن "الترميز" و"التقنع" و"الإيماء" هي من أهم ضرورات الفن بشكله العام، والفن الروائي بشكل خاص، ولكن لا بسبب الجبن، والعجز عن التصريح، ولا لغرض التقية والتخفي، والاحتماء وراء ضبابية الرموز، وغموضها، بل لغاية الارتقاء بالفن، وصقل أساليبه، وتخريض ذكاء متلقيه، وتدريب ذهنه على عدم الاكتفاء بظاهر الإشارات وضحلها، بل العمل على التقاط خفيها، والارتقاء بمضامينها، وهو ما يحرص جبرا نفسه على تقديمه في عمله هذا، فنجدته رغم ما يوحى به ظاهر نصه من أجواء كابوسية عامة، ومن تحرر مطلق من جميع مرجعيات الخارج السياسي، والاجتماعي، والقومي، لا يلبث أن يفاجئنا في إحدى صفحات عمله هذا بفقرات تكاد تكون تصريحاً بحقيقة الوضع العربي في فترة بداية الثمانينات، التي كانت بؤرها المتفجرة ما يحدث في بيروت من حرب أهلية بدأت قبل سنوات طويلة، وما تبعها من حصار، واحتياح إسرائيلي، فهذه الرواية "التي كتبت بعد "مجزرة أيلول" و"حصار بيروت"، و"مذبحة تل الزعتر" ما هي إلا تجسيد الروائي لحصار الأنظمة للفلسطيني، وقد عملت على تجريده من هويته، وسلبه إرادته، محاولة تسييره وفقاً لمشئته، وهواها، بعد أن حاصرته من جميع الجهات".¹³ وهو الخطاب الإيديولوجي، الذي عبر عنه الكاتب بترميز، وإيماء شديدين، ومع ذلك نجد في موضع وحيد من العمل يكاد يصرح بما آثر إبطانه، والتكنية عليه، كما ورد في قوله على لسان بطله الراوي:

"لينا الآن، أيها السادة، تخنقها الدماء. وراء بابكم الكبير هذا، وراء مصراعيه السامقين، تتراكم الجثث... آباءنا، أبناءنا، أطفالنا، نساؤنا، يقتلون في كل لحظة، بوحشية منظمة، في كل لحظة، بيوتنا تنسف، ومدننا تُحرق..."¹⁴

أي أن خطاب جبرا الروائي في عمله هذا خطاب ترميزي بامتياز، تحتضن معانيه الخاصة معاناة الفرد الفلسطيني وتشرذماته، وتنسحب على معاناة الفرد العربي وازدواجاته، لتنتج على هوم الإنسان العالمي، الذي إن اختلفت ظروفه عن هذين الأخيرين، فإنه يلتقي معهما في معاناة هشاشة الوجود، ونسبية جميع القيم، والمعايير.

أما في الرواية الأخيرة للكاتب (يوميات سراب عفان)، فيبدو الهاجس الفلسطيني متخفياً، ولكنه حاضر بأية حال، فعلى الرغم من أن الكاتب يختار هذه المرة أبطالاً غير فلسطينيين، وغير مشغولين بغير هواجس الفكر، وإشكالات الفن، فإنه لا يني يفاجئنا بأن هويته الفلسطينية حاضرة وملحة، فيبتكر لبطلته البغدادية - فيما يبدو - سراب عفان عرقاً فلسطينياً بعيداً، ولكن حاراً، ويجعل لها جدة فلسطينية مسيحية، تماماً مثله هو، ويدفعها دفعاً - قد لا يبدو مقنعاً - نحو هجر حبيبها (نائل عمران)، والانخراط في إحدى خلايا النضال السري في باريس!

ولن بدت هذه الخاتمة مفتعلة بعض الشيء، أو في الأقل غير مقنعة تماماً، فإنها تعكس فيما تعكسه مدى قوة حضور هوية الكاتب، واستبداها الملح بفنّه، وبأغلب مشاهد السردية، والإبداعية. وبغض النظر عن كون هذه الخاتمة مقنعة أم لا، فإنها بغموضها، وانفتاحها تحيل إلى شخصية استثنائية سابقة من شخصيات جبرا الروائية؛ هي شخصية (وليد مسعود)، الذي اختفى بدوره طيلة فصول الرواية، وغاب غيبة غامضة طويلة، ألمح الكاتب باقتضاب إلى تعلقها بضرورات الكفاح والنضال المسلح، مضحياً في سبيل هذا بثروته، ومركزه الاجتماعي، وحظوته المحسود عليها بين النساء، مثله مثل سراب التي تخلت بطيب خاطر عن أهلها، ووطنها، وحبيبها، لتغمر بدورها في قضية الكفاح وانشغالاته.

الخاتمة والنتائج:

- لم يخل أي عمل روائي لجبرا من أبطال فلسطينيين الهوية، أو في الأقل ذوي أصول فلسطينية، كما هو الحال مع وديع عساف في (السفينة)، ووليد مسعود في (البحث عن وليد مسعود)، وسراب عفان في (يوميات سراب عفان) التي رغم كونها غير فلسطينية الهوية إلا أن لها جدة فلسطينية، وفي أعماق نفسها يغتلي هاجس النضال والكفاح في سبيل القضية.

- يراهن جبرا في تجربته الإبداعية على مستوى وعي أبطاله وعلى ثقافتهم وثقافة القارئ، ولم يشذ عن هذا في سياق تعبيره عن قضية بلاده، فنجد أبطاله الفلسطينيين أو ذوي الهوية الفلسطينية مثقفين دائما ومشبعين بروح التجدد والإبداع.
- اتخذ البعد الفلسطيني في أعمال جبرا الروائية شكلين إبداعيين، أولهما مباشر وصريح، لم يشذ عن تجارب غيره من الكتاب العرب أو الفلسطينيين، والثاني مراوغ وإلماحي بدت من خلاله تجربة هذا الكاتب الكبير بكامل فرادتها وتميزها.
- تغيب في جميع أعمال جبرا إبراهيم جبرا شخصية العدو الإسرائيلي، فلا نجد أيّا من شخصيات رواياته ذا هوية يهودية / صهيونية، وهذا لا يدمغ هذه الأعمال بالأحادية، أو ضيق أفق الصراع، بقدر ما يحيل إلى طابع التركيز الشديد، والعناية الفائقة التي يضيفها على الذات الفلسطينية؛ فوحدها العنصر الفاعل والمؤثر، ووحدها محك التجربة، وبؤرة الصراع، وإن حضر الآخر أي العدو فلن يكون حضوره سوى ظلّ باهت، يتضاءل صاغراً أمام قوة حضور الفلسطيني، وعمق تأثيره، وروحه المتوثبة المتحدية العالم كله، لا عدوها التاريخي وحده.

الهوامش

- ¹ السامرائي، ماجد صالح: الاكتشاف والدهشة - حوار في دوافع الإبداع مع جبرا إبراهيم جبرا. ط1. دمشق: دار النمير، 2006م. ص 87.
- ² جبرا، جبرا إبراهيم: معاشية النمرة وأوراق أخرى. ص 268.
- ³ جبرا، جبرا إبراهيم: صيادون في شارع ضيق. ص 15-16.
- ⁴ محمد، ولات: دلالات النص الآخر في عالم جبرا إبراهيم جبرا الروائي. دمشق: وزارة الثقافة، 2007م. ص 326.
- ⁵ جبرا، جبرا إبراهيم: السفينة. ص 39-40.
- ⁶ جبرا، جبرا إبراهيم: السفينة. ص 43.
- ⁷ صالح، فخري: في الرواية العربية الجديدة. ط1. الدار العربية للعلوم: بيروت، ومنشورات الاختلاف: الجزائر، 2009م، ص 47.
- ⁸ جبرا، جبرا إبراهيم: البحث عن وليد مسعود. ص 55-56.
- ⁹ صالح، فخري: في الرواية العربية الجديدة. ص 55-56.
- ¹⁰ كاظم، نجم عبد الله: الرواية العربية والآخر (دراسة أدبية مقارنة). ط1. إربد: عالم الكتب الحديث وجدارا للكتاب العالمي، 2007م. ص 124-1123.
- ¹¹ جبرا، جبرا إبراهيم: الحرية والطوفان. ص 51.
- ¹² جبرا، جبرا إبراهيم: الحرية والطوفان. ص 156.
- ¹³ مجموعة من الباحثين: عالم جبرا إبراهيم جبرا الروائي. ضمن موسوعة الثقافة العربية في القرن العشرين: حصيلة أولية. ط1. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2011م. ص 955.
- ¹⁴ جبرا، جبرا إبراهيم: الغرف الأخرى. ص 78.

المصادر والمراجع:

- جبرا، جبرا إبراهيم: البحث عن وليد مسعود. ط3. بغداد: مكتبة الشرق الأوسط، 1985م.
- جبرا، جبرا إبراهيم: البئر الأولى (فصول من سيرة ذاتية). ط1. بيروت: دار الآداب للنشر والتوزيع، 2009م.
- جبرا، جبرا إبراهيم: الرحلة الثامنة. ط2. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1979م.
- جبرا، جبرا إبراهيم: السفينة. ط5. بيروت: دار الآداب للنشر والتوزيع، 2008م.
- جبرا، جبرا إبراهيم: الغرفة الأخرى. ط1. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1986م.
- جبرا، جبرا إبراهيم: تأملات في بنيان مرمري. لندن: دار رياض الريس، (د. ت).
- جبرا، جبرا إبراهيم: شارع الأميرات (فصول من سيرة ذاتية). ط1. بيروت: دار الآداب للنشر والتوزيع، 2007م.
- جبرا، جبرا إبراهيم: صراخ في ليل طويل. ط3. بيروت: منشورات دار الآداب، 1988م.
- جبرا، جبرا إبراهيم: صيادون في شارع ضيق. ترجمة: محمد عصفور. ط4. بيروت، 2018م.
- جبرا، جبرا إبراهيم: معايشة النمرة وأوراق أخرى. ط1. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1992م.
- جبرا، جبرا إبراهيم: ينابيع الرؤيا. ط1. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1979م.
- جبرا، جبرا إبراهيم: يوميات سراب عفان. ط2. بيروت: دار الآداب للنشر والتوزيع، 2006م.
- جبرا، جبرا إبراهيم: الحرية والظوفان. ط3. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1982م.
- السامرائي، ماجد صالح: الاكتشاف والدهشة - حوار في دوافع الإبداع مع جبرا إبراهيم جبرا. ط1. دمشق: دار النمير، 2006م.
- هلسا، غالب: فصول في النقد. ط1. بيروت: دار الحداثة، 1984م.
- محمد، ولات: دلالات النص الآخر في عالم جبرا إبراهيم جبرا الروائي. دمشق: وزارة الثقافة، 2007م.
- فخري، صالح: في الرواية العربية الجديدة. ط1. بيروت: الدار العربية للعلوم، الجزائر: منشورات الاختلاف، 2009م.
- كاظم، نجم عبد الله: الرواية العربية والآخر (دراسة أدبية مقارنة). ط1. إربد: عالم الكتب الحديث ودارا للكتاب العالمي، 2007م.
- مجموعة من الباحثين: عالم جبرا إبراهيم جبرا الروائي. ضمن موسوعة الثقافة العربية في القرن العشرين: حصيلة أولية. ط1. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2011م.
- السعافين، إبراهيم: الغرفة الأخرى وإشكالية الوعي. مجلة فصول، القاهرة، مج12، ع1، ربيع 1993م.